مجلة الرائد

العدد : ٢١٢ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٠ هجري ٩ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : بصيرة النفس أين موقعها ؟	بقلم : ماجد رسلان

يقول مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي . في كتابه اللطيف المفيد « **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** » ما ملخصه ، البصيرة : هي قوة القلب المدركة . وهي تأنيث لكلمة البصيرة وجمعها بصائر ، ومعنى قوله تعالى { **أدعو إلى الله على بصيرة** } [يوسف : ١٠٨] ، أي على معرفة وتحقق . ومعنى قوله تعالى : { **بل الإنسان على نفسه بصيرة** } [**القيامة : ١٤**] أي إن الإنسان ببديهة عقله ، يعلم أن ما يقربه إلى الله هو السعادة ، وما يبعده عن طاعته هو الشقاوة . وهناك معنى آخر هو : أن عليه من جوارحه بصيرة فتُبصره وتشهد عليه يوم القيامة . يقول الله تعالى : { **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** } [يسن : ٦٥] ومعنى قوله تعالى : { **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس** } [القصص : ٤٣] أي جعلناها عبرة لهم . ومعنى قوله تعالى : { **وكانوا مستبصرين** } [العنكبوت : ٣٨] أي طالبين للبصيرة . ومعنى قوله تعالى : { **تبصرة وذكرى** } [ق : ٨] ، أي تبصيراً وتبييناً . يقال بصرته تبصيراً وتبصرةً ، نحو ذكرته تذكيراً وتذكرةً . قال تعالى : { **قال بَصُرتُ بما لم يبصروا به**...} [طه : ٩٦] أي علمت بما لم يعلموا .

نخلص من هذا العرض الموجز إلى أن البصيرة قوة إيمانية قلبية مدركة ، ذات علم ومعرفة وتحقق تجعل صاحبها ذا بديهة عقلية ، يعلم ما الذي يقربه من ربه ، فيقوم به بإيمان ووعي وجد وإخلاص ، فتخلص له سعادة الدارين . وأما العمل الذي ينئيه عن ربه ، فيغمسه في تيه العصيان والشر .. يؤول به إلى شقاء مشؤوم وتعاسة في الدارين . فبعمل أهل السعادة يكون صاحب بصيرة واعتبار ، لسلوكه طريق الحق والواجب ، والخير والعدل ، والطاعة والعبادة في مفهومها الواسع الشامل .. فيتذكر ويُذكّر معاً ، ويكون في دعوته ودينه على بصيرة من أمره في كل شؤون حياته . وبعمل أهل الشقاوة يفقد البصيرة والاعتبار لتردّيه في هاوية الباطل التعيس ، والشر البئيس ، فلا يتذكر ولا يُذكر ، لأنه الختم الدنيوي جاء واستحكم . يقول تعالى { **ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** } [البقرة : ٧] . وستكون جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة : يوم أوان الختم الأخروي على فمه ولسانه حيث تذعن الجوارح لله صاحب الشأن والأمر . أن تتكلم وتفصح عما اجترح هذا الشارد عن طاعة الله ، ومن آثام وموبقات مهما كبرت أو صغرت . يقول الله تعالى : { **ويوم يُحشر**

أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ❋ حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ❋ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ❋ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ❋ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ❋ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين } [فصلت : ١٩-٢٣]

فنحن الآن أمام بصيرة مزدوجة ذات شقين :

- إيجابية منجية ، هادية منيرة .. هي عون ونجدة صاحبها في الدارين
- وسلبية مهلكة طاغية مظلمة .. هي وبال ومردية لصاحبها في الدارين .

فالأولى ذاتية إرادية نفسية ، يسعى صاحبها وتسعى معه إلى تحقيق الفضائل الخيرة الطيبة حيث ترشده إلى عمل الخير ، وتهديه إلى الحق ، وتؤيده في إرساء دعائم العدل ، ودعم الأخلاق البانية الرشيدة ... وتقف منه معه يوم العرض والحساب ، موقف المؤيد الداعم ، موقف الحامي المناصر ..

والثانية تسعى حثيثة إلى الشر والسوء ، والمعصية والرذيلة ، ونصرة الظالم ، ودحض المظلوم ، وإضاعة الحقوق ، وتقطيع الأواصر ، وتعطيل أحكام الله ، ونبذ منهجه ، ومحاربة دينه ، وانتهاك الحرمات ، لأن صاحبها مغلق القلب والمشاعر والأحاسيس والعقل .. يقول الله تعالى : { **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** } [الحج : ٤٦] .

ويكون المآل في نهاية المطاف أنها غدت وبالاً على صاحبها في أشد الساعات حراجة ، يوم الحساب والمحاسبة حيث كان عيناً عليه في الدنيا في جميع حركاته وسكناته ، وهي اليوم خصم خصيم بليغ ، تقيم ألف دليل ودليل أنه كان فاسقاً مارقاً ، عاصياً منتصراً للباطل ، ممالئاً لأهل النفاق . يقول الله تعالى { **وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** }[**التوبة : ١٠٥**]

فهذه البصيرة الحديدية لا يملك صاحبها من إرادته وأمره تجاهها أي شيء فهي والكتاب المنشور الذي جاء ذكره في القرآن العظيم ، صنوان لا يفترقان . يقول الله تعالى : { **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** } [ق : ٢٢] { **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك عليك اليوم حسيباً** } [الإسراء ١٣-١٤]

وما أبعد البون بين محاسبته لنفسه في الدنيا ومحاسبته لها في الآخرة ، إنه البون ما بين الصلاح والطلاح ، بين السعادة والشقاوة ، فالعبد المنيب العاقل البصير هو الذي يجعل هذه البصيرة بشقيها

الإيجابي والسلبي ، إيجابيتين وعونين وسندين ، تساندانه في معترك حياته ، وتعاضدانه في آخرته { **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** } [الشعراء ٨٨-٨٩] وبذلك ينهض بجميع التكاليف كافة بأمانة وإخلاص ويحقق رضاء الله ، والفوز المقيم في جنات النعيم ، التي لا يبتغي عنها حولاً ولا بديلاً .

وغير المنيب وغير العاقل البصير يُحول هذه البصيرة بشقيها إلى سلبيتين تُناكفانه في الدنيا ، وتناوشانه في الآخرة فيقع على تجارتين خاسرتين ، قاصمتين توردانه البوار ، وتدفعانه إلى سخط الله وغضبه وسوء عقابه ، مسربلاً بالذل والهوان .. باسطة إليه ملائكة العذاب أيديها تجره من ناصيته الكاذبة الخاطئة إلى نار تكاد تميز من الغيظ . يقول الله تعالى : { **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرًا ۞ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك تبوراً** } [الفرقان ١٢-١٣] { **وترى المجرمين مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار** .. } [إبراهيم : ٤٩-٥٠]

ولننعم النظر في المحاورة التالية التي تضع المؤمن الجادّ على الجادة السليمة - وهي بين الرسول المربي ﷺ وبين حارثة حين سأله : " كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً قال : انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة ، قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها . قال أبصرت فالزم ، عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه !!. " [جامع العلوم والحكم :ص٤٠-٤١]

إن الذي وصل إليه حارثة رضي الله عنه كان بفضل التربية النبوية ، والتوجيه السديد من الرسول ﷺ الذي خاطب كل فرد من أمته في كل أجيالها حتى تقوم الساعة بقوله : " **اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** " . وهذا هو الذي تمثله معظم جيل الصحابة تمثلًا حقيقياً ، ذاقوا من خلاله لذة الطاعة ، وعاشوا حقيقة العبادة ، وأصّلوا معاني التربية الإيمانية مع أنفسهم من جانب ، ومع غيرهم من جانب آخر ، فحارثة الذي أسهر ليله بالقيام وأظمأ نهاره بالصيام في عبادة شفيفة رفيفة .. استغرقت كل كيانه وأحاسيسه ، كأنه يتخايل الله عز وجل بين عينيه ، أبصرتْ بصيرته بنور قلبه ، وشعاع إيمانه أهل الجنة يزور بعضهم بعضاً وأهل النار يصطرخون فيها كالكلاب الضالة المسعورة .. . والنبي الكريم ﷺ أكد له هذه الحقيقة ، وأنه ليس في أوهام اليقظة ، ولا خيالات الرؤى ، حين قال له : " **أبصرت فالزم ، عبد نوّر الله الإيمان في قلبه** "

يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله : " فإن العبد إذا أُمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده ، حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه ، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته ، وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شيء من أمره ، فإذا تحقق هذا المقام سهُل عليه الانتقال إلى المقام الثاني ، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه . قال بعض الصالحين المبصرين (خفِ الله على قدر قدرته عليك ، واستح من الله على قدر قربه منك) . وأورد أبو نعيم وغيره أن عروة بن الزبير خطب إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف ، فلم يجبه ، ثم لقيه بعد ذلك ، فاعتذر إليه وقال : كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا " [جامع العلوم والحكم ص : ٤١ بتصرف]

إن هذا ليس غريباً على هذا الجيل الفذ من الصحابة الكرام ، جيل القدوة والأسوة ، لأنهم استوعبوا بدقة توجيهات الرسول ﷺ بكل حذافيرها ، ومقتضى إرشاداتها وتوجيهاتها وتربيتها على الإيمان واليقظة المبصرة كقوله " أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت "

إذن هذه البصيرة المتفتحة التي تحمل صاحبها حملاً على أن يبصر مواقع أقدامه في مسيرة حياته ، وتأملات عقله في تفكيره ، ومواقف تحركات فعله ، وظاهرة أخلاقه في سلوكه وعمله .. فإن أصاب الحق والخير حمد الله على توفيقه ، وإن أخطأ الرشاد استغفر وأناب على تقصيره ، وإن أساء لنفسه أو لغيره ، أتبع السيئة الحسنة لتمحها وقدم العذر والاعتذار لمخالفه ، لتكون القلوب نقية طاهرة من كل غل أوحقد ، أو بغضاء وحسد .. هذه البصيرة عظيمة عظيمة .. تجعل صاحبها أقدر على فهم مسارب نفسه التي كثيراً ما تراوغ وتخادع ، وتوارب وتنافق ، وتداجي وتداهن .. من أجل نزوة طارئة يسوقها طائف من الشيطان ، أو ضعف عارض يدفعه هوىً متبع أو إعجاب برأي .. فترى التكاليف مبدّدة ، والأمانة ضائعة .. هذه البصيرة عظيمة في ترويض النفس الجموح وتهذيبها وتربيتها ، ومعالجتها في تطهيرها وتطهرها ، في تذكيرها وتذكرها ، في يقظتها من رقدتها . يقول الله تعالى : { **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ۞ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم** } [المجادلة : ٧]

فما أشد الحاجة المسيسة إلى هذه البصيرة المبصرة التي تبدأ المعالجة من كهوف النفس الداكنة ومساريها المظلمة بالإنارة المضيئة لكل منعرجاتها ، وبالمكاشفة والمصارحة لكل ما من شأنه أن يبعدها عن ربها الهادي الموفق . العليم الحليم السميع البصير ..

فحينما يمارس كل عبد مؤمن أوّاه منيب مبصر المحاسبة لنفسه بهذه البصيرة الربانية ليقول : - دون خوف أو وجل أنا أخطأتُ ، أنا زللت ، أنا قصرتُ .. فلابد من الرجوع والمراجعة ، ولابد من تقويم المسار والخطا على طريق الحق والخير والواجب ورحم الله أخاً ناصحاً أهدى إلي عيوبي ، يكون بذلك على طريق النبوة الرشيدة المسددة بالوحي الأمين .

وحين يصل المؤمنون في أرجاء الدنيا إلى هذا الأفق السامي ، تتلاقى الجهود المباركة ، والطاقات القوية الأمينة ، وتتلائم الأفكار وتنسجم ، وتتناسق الحركات وتتناغم ، وتتآلف الأرواح وتتعارف .. ويأتي فوق كل ذلك توفيق الله وتأييده ورعايته وتسديده { **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** } [يوسف : ١٠٨]

وسبحان الله القائل في محكم تنزيله :

{ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** } [الأنبياء : ٤٧]

{ **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** } [الإسراء : ٩٦]

{ **إن الله بصير بالعباد** } [غافر : ٤٤]

{ **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً** } [الإسراء : ٧٢]

{ **وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون** } [غافر ٥٨]

إخوة الإيمان أينما كنتم ، أبناء الإسلام أينما وجدتم ، هذه تذكرة مبصرة أقدمها لنفسي ولكم . جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهدانا سواء السبيل ، وجنبنا أن نكون من الذين قال فيهم : { **فلما جاءتهم آياتنا مُبصرة قالوا هذا سحر مبين** } [النمل :١٣] .والحمد لله رب العالمين .